(٥)

من مزاعم الروحية الحديثة

(١)

العدد (٢٠) شعبان (١٣٨٦هـ) نوفمبر (١٩٦٦م)

عند بعض المتدينين طيبة تبلغ حد السذاجة، وإيمانهم بالغيب- إذا تجاوز حدود الكتاب والسنة - قد يكون ثغرة تنفذ منها الأساطير، وتضار بها حقيقة الدين.

وقصة تحضير الأرواح التي شاعت في عصرنا هذا قد اكتنفتها أوهام شتى، وسرت في ركابها أفكار ينكرها الإسلام.

ولكن لما كان الموضوع نفسه مثيرًا، ولما كان مضادًّا بطبيعته للمادية التي فرضت نفسها على العلم والسلوك، فإن كثيرًا من الناس هش له بدوافع حسنة، وظن أنه يستطيع نصرة الإيمان عن طريقه، ونحن نريد معالجة هذه النزعة من أساسها على ضوء ما نحفظ من كتاب ربنا وسنة نبينا.

ولعل إحقاق الحق في هذه القضية يضع الحدود لجدل كثير، ويغلق الأبواب أمام ترهات لا آخر لها.

ونتساءل أولًا: هل الأرواح في العالم الآخر- أعني فترة البرزخ- تستأنف نشاطها العام على نحو ما كانت تسير في الحياة الدنيا، وأن وسائلها في عالمها الجديد أوسع دائرة وأعظم اقتدارا؟

إن بقاء الأرواح بعد الممات عقيدة لا ريب فيها، وهي عقيدة جميلة مشرقة، حبذا لو ذكرنا الناس بها حينا بعد حين، فإن صورة الموت ترسمها الأذهان في إطار قابض عفن.

وأكثر الناس- في هذا العصر- يظن الموت مرادفا للبلى والفناء، ونهاية العهد بالإحساس والحياة والضياء.

وهذه الأفكار من نضح المادية التي تسود عالمنا الأرضي، أو هي من بقايا الجاهلية الأولى في فهم الوجود وقصة الخليقة.

والدين ضد هذه الأوهام، ونصوصه جازمة بأن الآخرة حق، وأن الموت نقلة من عالم إلى عالم، ومن وجود مستيقن إلى وجود مستيقن.

لكن هل الأرواح بعد هذه النقلة تستأنف سلوكها الأول- كما يقول معتنقو الروحية الحديثة- وأن بعضها يشتغل بالوعظ والإرشاد، وبعضها يشتغل بالطب وعلاج المرضى، وبعضها يشتغل بالنصح الفردي وحل المشكلات العارضة، وبعضها يتسكع دون عمل، وبعضها يمد يده بالأذى للأحياء، وبعضها يدور مذهولًا لا يدري أنه مات... هكذا يكتب الروحانيون في رسائلهم، بل إن بعض الأرواح عندما استحضر طلب سيجارا يدخنه... الخ، هل هذه سمات العالم الروحي ووظائفه؟

وهل صحيح أن ضروب الخدمة الاجتماعية تتاح لكثير من الأرواح لعلها ترقى وتنال رضوان الله وغفرانه، أو لعلها تكفّر عما فاتها في الماضي الأول أيام الحياة الدنيا؟

هنا نختلف مع دعاة هذه النحلة أشد الاختلاف وتفترق بنا الطرق فيذهبون حيث شاءوا، ونثبت نحن على ما بيّن الكتاب الكريم والسنة المطهرة.

الإسلام قاطع في أن ميدان العمل الإنساني هو هذه الحياة الدنيا. وأن المرء- في فترة الأجل الموقوت له- يبتلى بفنون التكاليف، ويتعرض لامتحانات شتى، وأن نجاحه وسقوطه يتقرران جميعا عند انتهاء عمره على هذه الأرض، وهو بالموت مباشرة يبدأ مثوبته أو عقوبته.

قضي الأمر، وطويت أوراق الامتحان، ومن سجلاتها وحدها يكتب من أهل اليمين، أو من أهل الشمال، ليس هناك مجال آخر لتكليف ولا تعرض آخر لامتحان، ولا استئناف لحكم أو طلب لفرصة جديدة.

نعم، فوق هذا الثرى وحده يكلف الإنسان أن يؤمن بإله لا يراه، لكن يرى آثاره ويعرف أدلته.

ويكلف بإيثار الخير وإن ضحى بشهوته العاجلة، ونزل عن رغباته الحاضرة، ويكلف بالإعداد لليوم الآخر، والبذر للحياة المستقبلة موقنا بعالم الغيب، وإن كان مغمورًا بعالم الشهادة.

فوق هذا الثرى وحده وخلال العمر المقدور له يصنع الإنسان مصيره المرتقب، ويستحيل أن تتاح له فرصة أخرى لمتاب إن كان خاطئًا، أو لارتقاء إن كان قاصرًا، فإن الموت فاصل قائم بين حياتي العمل والجزاء، أو حياتي البذر والحصاد.

واسمع إلى إجابة الله للمجرمين وهم يلقون جزاءهم العدل:

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ (**فاطر: ٣٧**).

وهذه الإجابة الإلهية تكرار لما قد يسأله المجرمون عند ساعة الاحتضار، عندما تذهب السكرة وتجيء الفكرة، عندما يتلهفون على ماض ضاع سدى فيقول أحدهم:

﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (**المؤمنون: ٩٩، ١٠٠**)، نعم إلى يوم البعث لا مكان لعمل، لا استئناف لنشاط، لا فرصة لتوبة، لا مجال لترقيع ما فسد.

إن مجال العمل المطلوب والتوبة المنشودة في هذه الدنيا وحدها، والمرء في عافية من بدنه، وفسحة من أجله وإقبال من أمله.

فإذا دنت ساعة الرحيل عن هذه الدنيا أخذ الكرام الكاتبون يطوون دفاترهم دون اكتراث لتوبة الغرغرة أو يقظة الضمير الصاحي بعد فوات الأوان.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ (النساء: ١٧).

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ...﴾ (النساء: ١٨).

والواقع أن قبول الإيمان من كافر في هذه اللحظات أو قبول التوبة من مفرط، أشبه ما يكون بقبول الغش في الامتحان وحسبان الطالب الذي يتلقف عونا من هنا وهنا- ليستطيع كتابة شيء في ورقته- مساويا للطالب الذي عكف على الدراسة، وسهر الليالي في انتظار هذه الساعة، وشتان بين الرجلين، ومن ثم كان الجواب الأعلى لما قال فرعون ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس: ٩٠، ٩١)

وهذا المعنى الساري في آيات القرآن طولا وعرضا ترى مثله في أحاديث النبي ﷺ : «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم نافع، أو ولد صالح يدعو له» (صحيح مسلم - رقم ١٦٣١).

وتلك بداهة آثاره في الدنيا تخلفه بعد حياته ويجري عليه أجرها ما شاء الله.

ومن فضل الله على كثير من خلقه أن جعل لهم رصيدا مفتوحا من المثوبة النامية الباقية ما بقي عملهم متجدد النفع مطرد الفائدة.

فإن العمل الصالح قد يكون محدود الدائرة لا يتجاوز خيره خطًّا معينًا، على حين يؤلف البعض كتابًا يسير هداه مع الأجيال، أو يصنع دواء يستشفى به المرضى في القارات كلها.

لكن بدء هذا العمل النافع الواسع كان في حياة صاحبه، وأثناء الاختبار المقرر على ظهر هذه الأرض، أما بعد الممات فلا تكليف بعمل، ولا مجال لابتلاء، ولا ملحق لنجاح أو رسوب.

قال علي بن أبي طالب: ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل منهما بنون، فكونوا من أبناء الدار المقبلة ولا تكونوا من أبناء الدار المدبرة، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل.

وخطب النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فقفوا عند نهايتكم، إن المؤمن بين مخافتين، بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه، فليأخذ امرؤ من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت، والذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار». (المزي – رقم : ٤).

وتوكيدًا لهذا المعنى، وانتهازًا لفرصة العمل في الدنيا قبل مغادرة الدنيا وفي أثناء العمر المتاح قبل انقضاء العمر ومفارقة الحياة يقول الرسول الكريم:

«أيها الناس، كأن الموت في الدنيا على غيرنا قد كتب، وكأن الحق فيها على غيرنا وجب، وكأن الذين نشيع من الأموات سفر عما قليل إلينا راجعون، نبوئهم أجداثهم، ونأكل تراثهم، كأنا مخلدون بعدهم، قد نسينا كل واعظة وأمنا كل جائحة.. طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وأنفق من مال اكتسبه من غير معصية، ورحم أهل الذل، وخالط أهل الفقه والحكمة، طوبى لمن زكت نفسه وحسنت خليقته، وطابت سريرته، وعزل عن الناس شره، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، ووسعته السنة ولم يعدها إلى البدعة».[1]

---

(١) حديث موضوع، قاله ابن عساكر.

ولا تخالط مسلمًا ذرة من الشك في صدق الجزاء المكتوب للصالحين والطالحين، وأن مطالعة هذا الجزاء تبدأ مع مفارقة الروح الجسد، ورحيل الإنسان عن هذه الدار.

فإما هبت نسائم النعيم على أهل التقوى واستقبلتهم بشريات الفوز والنصر.. وإما تطاير شرر الغضب على أهل الإلحاد والعصيان، ورأوا عواقب زيفهم عارًا ونارًا.. وذلك معنى الحديث: «القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار» (الترمذي - رقم ٢٤٦٠).

الأرواح بعد الموت يستغرقها الجزاء المقدور لها على ما قدمت في حياتها الأولى.

وتصوُّرُ أنها تستأنف العمل بعد الموت في ميدان ما، بيننا نحن الأحياء تصور معتل منكور، لا صلة له بالدين، ولا يعتمد على أثارة منه.

فكيف بعد تعاليم الإسلام الواضحة- على ما أسلفنا- يجيء قوم فيزعمون أن الأرواح تعمل بعد الموت، وأنها تشتغل بالطب والتعليم حينا، والتسول والاعتداء حينا، وأنها تشارك الناس أحوالهم، وتقف حيث هي في انتظار من يشير إليها لتحضر في قفة أو دلو، أو ما شاكل ذلك.

ثم إن الجزاء الذي صوره القرآن في عشرات السور لا تلمح له أثرًا، بل تكاد تظنه صفرًا، فيما يصور به الروحيون مذهبهم العجيب، فلا جرم أن نرى الذهاب إليه انصرافًا عن الإسلام نفسه، وريبة في كتابه وسنته.

إنني أعلم- كغيري من المسلمين- أن الأرواح المجرمة تحبس في سجنها الموحش القاسي، وتلقى من العنت ما يشغلها عن السياحة والتسكع في شتى القارات، تنتظر من يحضرها لتسأل فتجيب، وأعلم أن الأرواح الطيبة مرحة في بحبوحة النعيم الإلهي، وأنها قد تعرف ما يلقى الأهل والأقربون، وأنها ترقب مجيئهم من دار الغرور إلى دار الحبور، وأنها لا تتكلف تسبيحًا وتحميدًا، فقد أصبح ذلك طبيعة لها كالتنفس لأهل الأرض، نعم نحن نعرف

من كتاب ربنا وسنة نبينا أطرافًا من ذلك الأمر المغيب، وليس وراء ذلك العرفان إلا الظن الذي لا يغني من الحق شيئًا.

ومع هذه المعرفة المستيقنة فإن المشتغلين بتحضير الأرواح لا بأس عليهم أن يستحضروا روح كارل ماركس ليقول لهم إنه في نعيم مقيم، وكم من كافر حضروا روحه لتعلن سرورها بعالمها الجديد.

ولقد رأيت أن أسترسل وراء هذه الكائنات التي قالوا إنها أرواح تشتغل بهداية البشر، فتتبعت مواعظها، وقرأت ما أملت من كتب وألفت من خطب، فماذا وجدت؟ وجدت من خلال العبارات المحمومة المتلقاة عن طريق الوسطاء أن الروحية دين جديد، له تعاليم جديدة، وسرعان ما وازنت بين هذا الدين وتعاليمه والإسلام الحنيف وما جاء به، فأدركت أن التعاليم الجديدة مجموعة خرافات نبتت من الأرض، ولم تنزل من السماء، وأن من أوحى بها ليسوا أرواحًا هادية وإنما هم مردة الجن.